اصدق وتصويره اوفر امانةً . اما العصري فمعانيه اتمُّ وتشابيهه الطف واوصافه اوفر وعواطفه ارقّ والفاظه اخفّ على الاذن ومهمّتهُ اشرف . ومهما يكن من القول فالشعر العصري لا يزال اليوم في طور الانتقال واننا انراه متجهاً في انتقاله نحو محجة الذوق السليم والادب الصحيح فنؤمل خيراً ونقول مع الشاعر :

واذا رأيت من الهلال نموّه ايقنتَ ان سيصيرُ بدرًا كاملًا

اوّل تاريخ لبيروت ولبنان

بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي

هو تاريخ بيروت واخبار الامراء بني الغرب اصالح بن يحيى الذي أسعدنا الحظّ على وجود نسخته الفريدة في مكتبة باريس العمومية فنشرناهُ اولًا في مجلة المشرق في سنتيها الأولَيَيْن ثمَّ طبعناهُ على حدة واضفنا اليهِ معلومات وفهارس مختلفة . فقدّرهُ العلماء قدرهُ واقبلوا على مطالعتهِ

ولمَّا نفدت طبعتهُ الاولى قبل الحرب الكونية لم تسمح لنا الظروف باعادة طبعهِ الّا في العام الحاضر فأجلنا فيهِ النظر وضبطناهُ على أصلهِ المخطوط واصلحنا ما وقع فيهِ من الاغلاط الطبعية لكنّنا تركناهُ على نصهِ الاصلي زيادةً في امانة النقل مع الاشارة الى اغلاط مؤلفهِ ليتضح المعنى ويزول الالتباس . وقد شفعنا هذه الطبعة الجديدة بعدّة معلومات منها للمؤلف كتعريف ملوك وولاة زمانهِ وكحملة السلطان برسباي على قبرس واسر ملكها يانوس فجاءت هذه الطبعة اوفى وادقّ من الطبعة الاولى

وها نحن نصف هنا ما يستفاد من هذا الكتاب النفيس لتعريف بيروت والقسم الجنوبيّ من لبنان في القرون الوسطى لاسيما في عهد دولة المماليك المصريّة التي في عهدها اشتهر امراء بني الغرب . ولكاتبهِ صالح بن يحيى ميزةٌ خاصة تزيدنا بشخصهِ ثقةً وباوفاداتهِ اعتبارًا . وذلك انهُ عاش في زمن قريب من الحوادث والامكنة التي

يصفها . وقد وقف على كثير من الآثار الخطيَّة والسجلَّات الاهلية التي اخذتها يد الضياع فنقلها بكل حرص وتدقيق

ومن صفاته ايضاً انهُ لم يكتب ما كتب تزلُّفاً ومجاملةً بل خصَّ كتابهُ لاسرته ليبقى كذخر بينها يستفيد منها الخلف من اهلهِ دون غيرهم . هذا الى شهادة ابن سباط عنهُ بقولهِ في مديحهِ :

« انهُ الامير الكبير العالم المشهور بعلمهِ . . الذي فاق زمانهُ وفات اقرانهُ وقد جمع العلوم في معرفة الكواكب والنجوم والاسطرلاب ونظم الشعر وترتيب التواريخ وقد كتب تاريخ بيت تنوخ وهو صاحب الزوات وقد حضر فتوح قبرس سنة ٨٢٨ (١٤٢٥م) »

١ الفوائد التاريخيَّة

واوَّلُ ما يُستفاد من تاريخ صالح بن يحيى عدَّة معلومات تاريخيَّة سواء كان لتعريف بيروت ام لاخاء لبنان

فقد افتتح كتابهُ بذكر قدَم بيروت وآثارها الدالَّة على سابق عهدها ما يشهد لهُ على حسن النظر والتبحُّر في الامور . فيصف ما فيها من الاخربة القديمة والعاديَّات الفريدة الناطقة بعظم شأنها ورونقها السابق

ثمَّ يذكر بعض تقاليد النصارى فيها كمحاربة القديس جرجس للتنين وكايقونة بيروت العجائبيَّة وكاحتفالهم بعيد القديسة بربارة ثمَّ يروي شيئاً من اخبار سواحل بيروت الى صور وصيداء

ثمَّ ينتقل الى ذكر فتوحات بيروت الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين ثم فتحها في زمن الصليبيين مرَّة اولى سنة ١١١٠م فاستردَّها منهم السلطان صلاح الدين سنة ١١٨٧م لكنها لم تبقَ في حكم المسلمين الَّا عشر سنوات فعاد الفرنج وملكوها خمساً وتسعين سنة الى ان تمَّ فتحها الاخير على عهد السلطان الملك الاشرف خليل سنة ١٢٩٠

وقد وصف ايضاً صالح ما اصاب بيروت من غزوات قرصان الفرنج الجنويين الذين حاولوا فتحها ونهبها غير مرَّة كما انهُ ذكر محاربة عساكر الشام لجهات لبنان الشمالية ورجوعهم مرَّة اولى عنها خائبين مخذولين سنة ١٢٩٢ ثم حملتهم الثانية عليها سنة

١٣٠٥ بخمسين الفاً من جهة طرابلس فبدّدوا اهلها ودمّروا بلادهم

ومعظم فوائد تاريخ ابن يحيى مدارهُ على اخبار ملوك مصر المماليك وغزواتهم لانحاء الشام واقامتهم عليها العُمّال من طرفهم وتصرُّف هؤلاء العمّال غالباً بالاستبداد والظلم وغير ذلك من المعلومات الدقيقة

امّا تاريخ الامراء بني الغرب فيتناول قسماً كبيراً من كتاب صالح بن يحيى فيتتبع اخبارهم منذ اصلهم الراقي الى ما قبل الاسلام حتى زمانهِ فيجعلهم طبقات ثلثاً ويسرد تاريخهم فرداً فرداً وكلّ ما يتنوط بهم وبأسرتهم وذراريهم ومآثرهم فيظهر لنا لبنان الجنوبي كمركز حياة نامية بفضل هؤلاء الامراء الذين اشتهر بينهم كبار الرجال كجمال الدين حجي بن محمد وناصر الدين الحسين وزين الدين صالح. وربما وقعت بينهم وبين جيرتهم ومواطنيهم منافرات ومناقشات يعدّدها المؤلف ويذكر سوابقها ولواحقها.

وفيه ايضاً ذكر ما جرى لبني الغرب من المعاملات مع امراء الفرنج الصليبيين لما كانوا يملكون سواحل الشام. وبعض هذه المعاملات كالهدايا المتبادلة تُنبئ بلطف طباع الجانبين وبائتلاف الاخلاق

٢ الفوائد الجغرافية

هذه الفوائد متعدّدة فانّ صالحاً يبتدئ بتعريف موقع بيروت جغرافيًّا معيناً طولها وعرضها. ثمّ يذكر سكّانها بعد الفتح الاسلامي ومن اشتهر من المسلمين فيها وخصوصاً الاوزاعي ابا عمرو عبد الرحمان الذي جرى اهل الشام على مذهبهِ نحو مائتي سنة ثمّ عدلوا الى المذهب الشافعيّ. ويصف الاهلين بانهم كانوا «على احسن حال وأسرّ بال» ولم يعتهم الصليبيّون بل عاشوا تحت حكم الفرنج باطمئنان وراحة. قال صالح (ص٢٣) وكان بها جماعة من المسلمين مستوطنين مساكنين بمساكنة الفرنج. وقد صرّح ابن جبير برحلته عن حسن حال المسلمين في عهدهم

وقد افاد صالح ايضاً عن ابنية بيروت فذكر قناتها التي كانت تأتيها بالماء من لبنان وذكر تحصيناتها التي جعلتها من المدن الحريزة في وجه العدوّ فكان لها سور منيع يحيط بها وقلعة تحميها وزادها الصليبيّون حصانة حتى انّ صلاح الدين حاصرها

ثانية ايام ونصب عليها المجانيق ولم يفتحها الا بطلب اهلها الامان (ص ٢٢)

ومن تحصينات بيروت التي ذكرها صالح برجان على جانبيها يدعى الواحد البرج الكبير والآخر الصغير المعروف بالبعلبكي وكان بينهما باب يُدعى باب السلسلة عليه سلسلة ضخمة من الحديد تمنع المراكب من الدخول (ص ٤١)

ولحماية بيروت من العدو يذكر صالح انهم كانوا يلتجئون الى دمشق وذلك بواسطة الحمام الزاجل او حمام البطاق في النهار وبعلامات نارية في الليل على رؤوس الجبال فيبلغ الخبر الى دمشق بساعات قليلة فتأتيهم النجدة. (ص ٤٠) وهو يدعو بيروت فرضة دمشق اشارة الى عظم شأنها بالنسبة الى تلك العاصمة. وذكر ايضاً غير مرة درك بيروت والتزام امراء الغرب بنظامه

ومن افاداته الجغرافية ايضاً ما ذكره صالح عن ابنية بيروت. فذكر جامعها الكبير الذي كان كنيسة للنصارى على اسم القديس يحنا فحوّلوه الى جامع بعد الفتح الاسلامي الثاني ثم ازالوا ما كان يزين جدرانه من الصور النصرانية فمحوها ومطوها

وذكر صالح كنائس اخرى في بيروت منها كنيسة الرهبان الفرنسيسيين التي دعاها كنيسة افرنسيسك (ص ١١٠) وكنائس للقيارسة والبنادقة (ص ٣٩)

وكذلك ذكر ابنية اخرى بناها امراء الغرب في بيروت كالقيصارية والخانات ومنازل عامرة لسكناهم

اما (جغرافية لبنان) فان تاريخ بيروت لصالح اول تاريخ نعرفه وردت فيه اسماء قرى لبنان ومزارعها في جنوبي بيروت وغربيها فقد خصصنا لها فهرساً فاذا هي تنيف على المئتين وهناك امكنة بادٍ اليوم ذكرها فلم يبقَ لها اثر

ولصالح ما عدا لبنان فوائد جغرافية عن السواحل الشامية لاسيما المجاورة لبيروت بين اللاذقية وعكا فيذكر معظم قرى الشوف من الغرب الشمالي والجنوبي واقليمي الخرّوب والتفاح. وقد اتسع خصوصاً في وصف امهيه وعراموت وابنية الامراء فيها من علالي ومجالس وحارات وحمامات. وقد ذكر انهارها كنهر الكلب ونهر بيروت ونهر الدامور ونهر حيفا وذكر جسورها منها جسر نهر الكلب الذي عمره المهندس ابو بكر بن البصيص البعلبكي (ص ١٠٨) وجسر الدامور الذي اجتاحه السيل ثلاث مرات بعد ان عمّره الدمياطي (ص ١٠٧—١٠٨)

٣ الصناعة والاقتصاد

انّ بيروت لموقعها على ساحل البحر ولقربها من دمشق واصلاتها اليومية مع انحاء الجبل كلّ ذلك جعلها من اصلح المدن لعاملات التجارة . ففي ايّام حكم الفرنج اتّسعت تجارتها مع البلاد الغربية فنقلت اليها مرافق الشام واستبدلتها بمحصولات اوربّة . ولمّا عادت الى المسلمين وتملّكها سلاطين مصر خمدت فيها تلك الحركة التجاريّة مدّة ثمّ عادت الى ازدهارها وقد ذكر صالح بين الفرنج المتاجرين في بيروت بسفنهم البنادقة والكتيلان الاسبانيين واهل قبرس . قال صالح (٣٩—٤٠) : «وكان للقبارسة كنس ببيروت وجماعة تجّار ساكنين ولهم الخانات والحمّامات .. وكان جميع المرتّبات الواردة والصادرة تؤخذ ببيروت وكان ارتفاعها جملة مستكثرة . وعلى باب الميناء دواوين وعامل وناظر ومُشارف وشادّ يتولّون من دمشق والمتوفّر من المرتّبات يحمل الى دمشق»

ولا شكّ انّ البيارتة ايضاً كانوا يتاجرون مع مدن الساحل ومع مصر نفسها . وكان يساعدهم على التجارة البحريّة ما لديهم من الخشب فكانوا يجهّزون السفن لتلك الغاية . أمّا الدولة المصريّة فكانت اتّخذت بيروت كدار صناعتها وكمعمل اساطيلها وقد ذكر صالح في تاريخه انواعاً من السفن كالحمّامات والبُطس والاغربة والشواني والقراقير كان يُعهد بعملها الى اهل بيروت . وقد وصف ما اصطنعت الدولة من السفن لمحاربة قبرس وكان كلّ ذلك الخشب من «حرش بيروت» (ص ٣٤)

أمّا الصناعة في لبنان فانها كانت حراثة الاراضي . يُعنى بها الفلّاحون في خدمة امراء الجبل . وكان الامراء يستأجرونهم ايضاً للعناية بالزيتون وطباخة الصابون (ص ١٨١)

٤ الفوائد السياسية

افادنا صالح في تاريخه عن سياسة ملوك مصر في بيروت وسوريّة فانهم كانوا يقيمون الولاة على دمشق باسم النوّاب واليهم يرجع عمال الدولة في الشام ولبنان من ناظر ومُشارف وشادّ . وكان امراء العرب تحت حكمهم وهم اصحاب الاقطاعات ينالونها من قبل السلطان بمناشير ذكر ابنُ صالح كثيرًا منها تُعطى لهم على شروط معلومة كتجهيز بعض الجنود في اوقات الحرب (ص ٥٢) وكالتزامهم حراسة الجبل

وبيروت من غارات العدوّ فيقيمون الابدال لهذه الغاية ويراقبون دَرْبند نهر الكلب اي مضيقهُ ويتّخذون لذلك قوماً من التركمان المستوطنين في سوريّة ومن المجاهدين المتطوّعين خيّالة ورجّالة وطنيين

وقد ذكر ابن يحيى الاعمال التي قام بها الولاة سواء كان في بيروت ام في بقية انحاء الشام وعدّد مرتّباتهم ومن كانوا تحت امرهم كالقضاة والخطباء والجند السودان بعدد اربعين خيّالاً ثم عشرين مشاة واصحاب الكوسات والطبلخانات والانفرة والزمر

وكذلك روى استبداد بعضهم وقيامهم على السلطان وما دار بينهم من الحروب. وما قاساهُ لذلك امراء الغرب بانحيازهم الى احزابهم كما روى ايضاً محنة ثلثة منهم اذ حُبسوا في الكرك وفي القاهرة. وعلى خلاف ذلك ما نالوه من الامتيازات وما خُلع عليهم من ثياب الشرف كالفراء والستور والطراز والطردوحش والحياصات (ص ١١٠)

٥ الأخلاق والآداب والدين

يلوح ايضاً في تاريخ صالح بن يحيى شيء منها. فيذكر عيشة امراء الغرب العائلية وما كان يدور بينهم من المعاملات في مواسم الافراح وفي مقامات الحزن. واشتغال بعضهم بركوب الخيل وغيرهم بالصيد سواء كان بالطيور الجوارح او بمطاردة الوحوش مع الكلاب. ومن جملة ما افاد (ص ٨١ــ٨٢) انّ اسداً ظهر في جهة الغرب فنوى (ص ١٦٣) احد اغداء امراء الغرب ان يُهلك الامير زين الدين صالح بن علي ببراثنهِ فزعم انهُ دبٌّ ظهر فخرج زين الدين لمقاتلتهِ فعرف انها حياة فلم يفشل امامهُ بل رماهُ بسهم في قلبهِ فقتلهُ

ويذكر ايضاً كثيراً من الامور الدالّة على كرم بني الغرب وشرف اخلاقهم

امّا (الآداب) فانّ صالحاً يروي ما امتاز بهِ الامراء من المعارف لاسيما نظم الشعر ويدوّن قصائدهم ومنها ما هو غاية في الركاكة. ويذكر الشعراء الذين دخلوا عليهم ومدحوهم واشهرهم محمّد العزّي

وكان امراء الغرب يأخذون العلوم الادبيّة من شيوخ مفردين ولم يذكر صالح انّ في لبنان الجنوبي كان يوجد مدرسة واحدة

ومما خصّهُ بالذكر اعتناء بعض اولئك الامراء بالكتابة والخطوط من المنسوب

والرقاع والثلث والطومار. وروى عن غير واحد منهم انَّهُ كان يكتب على حبسة من الارز آية الكرسي كما يصنع اليوم بعض الخطَّاطين طلباً للشهرة

أمَّا (الدين) فانَّ صالحاً لم يكد يروي شيئاً عنهُ ولعلَّ سبب ذلك تكتمهم على عادة الدروز وكان المذهب الدرزي قد شاع بينهم فنسكت عنهُ المؤلف تماماً واشار اليهم باسلم بيت سليمان. على ان هذا المذهب لم يعمّهم كما يظهر لأنَّ صالحاً يذكر سفر والدهِ يحيى الى الحجّ مع بعض اصحابه (ص ١٨٠) وذكر انَّ ناصر الدين بنى مسجداً في اعبيه

هذه خلاصة بعض الفوائد التي يمكن اجتناؤها من تاريخ صالح بن يحيى وكتابهُ جدير بأن يزين مكاتب كلّ ادباء الوطن ليقتبسوا من انوارهِ ويعرضوهُ على ما يقع في يدهم من المخطوطات القديمة

جولة في كسروان

لحضرة القس انطونيوس شبلي اللبناني

مكتبة عين ورقة (تتمَّة)

٦ً كتاب المنطق الجزء الثاني من الفلسفة. خط عربي كنائسي جميل. وهو يتضمَّن ثمانية عشر بحثاً وتسعين فصلاً للخوري بطرس بن بطرس بن اسحق التولاني الماروني واعظ مدينة حلب المحميَّة وايكونومس الكنيسة المارونيَّة (اطلب المخطوطات العربية لكتبة النصرانيَّة ص ٧٦). نسخهُ الشماس اغوسطين بن يوسف بن الهندي الحلبيّ الماروني في ايَّار سنة ١٧١٩ ثم عُلقت هذه الجملة بخط مختلف عن خطّ الناسخ وهي:

«اعلم ان كاتب هذا الكتاب (اي اغوسطين الهندي المذكور) هو الذي كان يعرّب تأليفات التولاني. وهو تلميذ المطران جرمانوس فرحات (١ صح.»

٧ً—٨ً نسختان من ديوان المطران فرحات واحداهما مخرومة. ٩ً كتاب

١) ممَّا لا ريب فيهِ ان السيد فرحات كان يهذّب عبارة تأليف استاذه الخوري بطرس التولي. وكان يعهد بذلك احياناً الى تلميذهِ الهندي المذكور فيضحّيها تحت مناظرتهِ ليدرّبهُ على صناعة الانشاء.